إعداد: أحمد جميل عزم*

المثقف والثورة: حنّا ميخائيل (أبو عمر) ورفاقه**

تقول لورد حبش، مديرة معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية، إن أهمية دراسة سيرة حنا ميخائيل (أبو عمر)، لا تنبع فقط من الدور الشخصي، ومن مسيرته في الثورة الفلسطينية، واختفائه ورفاقه في ظروف غامضة في سنة ١٩٧٦، بل أيضاً لأن الساحة الفلسطينية، بعد أكثر من أربعة عقود باتت في حاجة إلى تعزيز قيم المبادرة والإقدام والثورة التي جسدها أبو عمر ورفاقه.

النشأة

نشأ حنا ميخائيل (١٩٣٥ – ١٩٧٦) في رام الله، كما تقول زوجته جيهان الحلو، وحيداً بين أربع بنات، ويرجع إلى والديه كثير ممّا ورثه عنهما من إنسانية مرهفة وانتماء إلى الوطن.

أنهى دراسته في مدرسة الفرندز في رام الله، في سنة ١٩٥٢، واتجه إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث درس الكيمياء، في كلية هافرفورد، لكنه قرر تغيير تخصصه العلمي إلى مجال الإنسانيات، وحصل على الدكتوراه من جامعة هارفرد عن أطروحته "السياسة والوحي: الماوردي[1] وما بعده"، ليعمل بعدها أستاذاً للعلوم السياسية في جامعة برنستون، ثم انتقل إلى جامعة واشنطن.

اختيار الحل الوطني

انتقل حنا ميخائيل من الولايات المتحدة إلى الأردن، وانضم إلى الثورة الفلسطينية في سنة ١٩٦٩، وينقل أبو نائل القلقيلي، عنه قوله: "شعرت بعدم الجدوى هناك، وإن الجدوى في العمل لتغيير الواقع هنا."

انتمى حنّا إلى حركة "فتح"، على الرغم

* رئيس برنامج الدراسات العربية والفلسطينية في جامعة بير زيت.

** هذا التقرير مبني على مداخلات لنبيل شعث وجيهان الحلو زوجة حنا ميخائيل، وعبد الفتاح القلقيلي (أبو نائل)، وأحمد جميل عزم، ويوسف عراقي، خلال ندوة نظمتها مؤسسة الدراسات الفلسطينية ومعهد إبراهيم أبو لغد في جامعة بير زيت في ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٦، لمناسبة الذكرى الأربعين لاختطاف حنا ميخائيل (أبو عمر) ورفاقه في لبنان في سنة ١٩٧٦.

من أنه كان يعيش مرحلة الاستقطاب العالمية بين اليمين واليسار، وكان متضامناً مع الثورتين الفييتنامية والجزائرية. وبحسب ما أوضح هو لأصدقائه ومعارفه، فإن خياره هذا جاء لأن "فتح"، مثلما قال لإدوارد سعيد، "واسعة بما فيه الكفاية لتضم جميع الناس غير الراضين عن الاتجاهات السياسية للقوى الحاكمة." وفي السياق ذاته، ينقل نبيل شعث، عن أبو عمر قوله: "استمعت إلى الجميع، لكني اخترت 'فتح' "، لأن الناس يفهمون "رسالتهم بسهولة، من دون عبارات مطاطة وألفاظ أيديولوجية صعبة."

وعلى الرغم من توجهاته اليسارية، فإن جيهان الحلو توضح أنه "كان يؤمن بأن الحضارة الإسلامية حضارة عظيمة، وعلينا أن نفهمها ونعتز بها، وإلاّ استأثرت بها القوى الرجعية"، ومن هنا حدد موضوع أطروحته للدكتوراه عن "العلاقة بين السياسة والوحي في الإسلام". وبالمثل فإن الفكرة الأصلية لحركة "فتح" هي البحث عن القواسم المشتركة في مواجهة التناقض الرئيسي مع الاحتلال، وتهميش التباينات الأيديولوجية والاجتماعية إلى حد كبير.

المسلكية الثورية والحياة الاجتماعية

اختار حنا ميخائيل، كما يقول داود تلحمي، "التخلي عن الخيارات المريحة التي كانت متاحة له في مكان إقامته البعيد، الولايات المتحدة، وقرر بعد النكبة الثانية، نكبة ١٩٦٧، الانتقال الى ساحات العمل الوطني الفلسطيني المباشر، في الأردن أولاً، حيث كانت قوى المقاومة الفلسطينية الناهضة تتجمع بعد الحرب، ثم في لبنان، بعد 'أيلول الأسود'، وكان دائماً متواضعاً وملتصقاً بالجماهير." ويضيف تلحمي قائلاً: "كنت تشاهده في مخيمات عمّان والأردن وقواعد الفدائيين هناك، وبعد ذلك في أزقة بيروت ومخيمات لبنان، فتخاله، إذا ما حكمت على مظهره الخارجي، واحداً من أبناء المخيمات والأحياء الفقيرة المنتشرة في أقطار اللجوء. كان حريصاً كل الحرص على ألاّ يعيش حياة تختلف عن حياة غيره من المناضلين العاديين الآخرين الذين انخرطوا في حركة المقاومة الفلسطينية، وألاّ يبدو آتياً من محيط اجتماعي أكثر رفاهية."

أمّا علاقته بجيهان الحلو التي كانت قد سبقته إلى عضوية حركة "فتح"، وكانت عضواً في الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، وداعية متحمسة لقضية المرأة، فبدأت عندما التقاها في سنة ١٩٦٩، ووجدا شيئاً كثيراً مشتركاً بينهما، "وخصوصاً فلسطين"، وتزوجا في سنة ١٩٧٢ في حفل اقتصر على العائلة المباشرة.

وتوضح جيهان: "امتلك أبو عمر عمقاً إنسانياً كبيراً، ولهذا كان كثيرون من الكوادر من الجنسين يستشيرونه في قضاياهم الاجتماعية الشخصية لأنه كان يحاول أن يفهم صعوبة تشابك العلاقات وتعقيدها بين تداخل قيم المجتمع التقليدي العشائري، والقيم البورجوازية والقيم الثورية."

في سنة ١٩٧١، كما يوضح أبو نائل، تجمعت قوات الثورة الفلسطينية عامة، وقوات "فتح"، وخصوصاً في الأحراش في شمال الأردن، وتشكل ما عُرف بقيادة الأحراش برئاسة خليل الوزير أبو جهاد ونائبه أبو علي إياد، وكان في عضويتها أحمد عفانة (أبو المعتصم) وكمال عدوان وصخر حبش وإسحق

الدقس وحنا ميخائيل (أبو عمر) وعثمان أبو غربية. وفي ذلك الموقع ترسخت علاقة أبو عمر بالكاتب الفرنسي الكبير جان جينيه (Jean Genet)، الذي زار الأحراش في حينه، وكتب كثيراً عن أبو عمر.

كما توطدت في الأحراش علاقة حنا بكل من كمال عدوان وصخر حبش، الأمر الذي جعلهما بعد الخروج من الأحراش يختارانه في نهاية سنة ١٩٧١ ليكون عضواً في قيادة القطاع الغربي المسؤول عن العمل داخل فلسطين المحتلة، تلك القيادة التي سُميت في حينها "بورد" (Board)، والتي كان يرئسها كمال عدوان ونائبه صخر حبش. ومثلما يوضح أبو نائل الذي صار عضواً في هذا "البورد" في سنة ١٩٧٢، مسؤولاً عن التعبئة بما في ذلك التدريب، فإن أبو عمر كان مسؤول التنظيم في الأرض المحتلة.

في صيف سنة ١٩٧٢ تقرر في القطاع الغربي عقد دورة صيفية تدريبية وتثقيفية للكوادر، وخصوصاً طلبة الجامعات العربية والعالمية، وكان أبو عمر أحد أفراد الطاقم المشرف على هذه الدورة. يقول أبو نائل إن انشغال أبو عمر بالتدريب، وتحديداً التثقيف السياسي، وضعه أمام تحديات تبسيط الأفكار، فقد كان حريصاً، وهو الأكاديمي الآتي من مجال الفلسفة في أرقى الجامعات العالمية، على أن يصوغ الأفكار بما يلائم أبسط المناضلين. ولعل قصته مع المناضل "نعيم أبو محمود"، واسمه الحقيقي عبد الحميد محمود وشاحي الذي كان أمّياً، أفضل مثال لذلك، فنعيم كان من أفضل كوادر حركة "فتح" وأنقاهم، وقد توثقت العلاقة بينهما، وقام أبو عمر بمساعدته على تعلّم القراءة والكتابة.

ويقول تلحمي: "كان أبو عمر لطيف المعشر خفيف الظل، في مناخ قاسٍ ومنطقة صعبة وظروف إقليمية ودولية لم تنفك تتدهور في المحصلة العامة، منذ النكبة الثانية في سنة ١٩٦٧. وكان كثيراً ما يلجأ الى روح الدعابة المُرة كي يعبّر عن ضيقه من بعض ما يدور حوله، وما يراه من ممارسات لا تستقيم مع ما كان يعتبره السلوك الثوري المفترض. كان لديه قناعات فكرية وسياسية يعبّر عنها في حلقات ضيقة من معارفه، وفي لقاءات مع الشبان الذين كان يتولى مهمة تثقيفهم وتأهيلهم السياسي والفكري، في الأردن ثم في لبنان، وفي زيارات متقطعة كان يقوم بها لبلاد أجنبية، ضمن المهمات المناطة به."

ويروي شعث أنه لا يتذكر أن حنا كان مقاتلاً بالفعل، لكنه عاش مع المقاتلين دائماً، وكان معهم في الميدان يخاطبهم بلغتهم اليومية، ويعيش حياتهم.

ومن أولويات أبو عمر، تقول جيهان الحلو، كانت قضية التنظيم، إذ "لا يمكن أن ننتصر بردّات الفعل من دون تنظيم وتخطيط ورؤية استراتيجية. والإنسان في نضالنا الثوري هو ثروتنا الأساسية. لذا ترك العمل في الإعلام والتوجيه السياسي والعلاقات الخارجية." وهو لم يرَ العمل في الوطن المحتل كفاحاً مسلحاً فقط، بل رأى أن النضال المدني والنضال الجماهيري هما الأساس، وأن الكفاح المسلح يكون داعماً، والبندقية يحركها البرنامج السياسي. ومن هنا كانت المبادرة بتأمين التدريب لفريق من فرقة "بلالين" من الوطن المحتل. وكما قال عنه إميل عشراوي: "كان مهتماً بالفن كفن وكأدب ووسيلة نضال، وقد أمّن للفريق التدريب والتعرف على

الحركة المسرحية في لبنان وسورية."

هذا لم يمنع أبو عمر من أن يتولى مهمات نخبوية جداً أيضاً في الإعلام والفكر، فعلى سبيل المثال، يوضح أبو نائل أنه في حزيران/يونيو ١٩٧٠، اشترك أبو عمر في البرنامج التلفزيوني الأميركي الشهير The Advocates الذي "شاركت فيه شخصيات كبيرة بما فيها الرئيس المصري جمال عبد الناصر، والعاهل الأردني الملك حسين، والأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين جورج حبش. ومن الطرف الآخر (من دون الوجود في المكان نفسه) قيادات إسرائيلية، منها يهوشفاط هركابي الذي كان قد ترك موقعه كرئيس شعبة الاستخبارات العسكرية في الجيش الإسرائيلي." وكما يوضح شعث، فإن أبو عمر كان يؤدي دوراً أساسياً، فيصوغ التقارير السياسية التي تصدر عن مركز التخطيط في بيروت.

المدرسة الأيديولوجية

عندما تستمع إلى المحاضرات التي كان يقدمها أبو عمر في لبنان، والتي يوجد بعضها في موقع الإنترنت، يتضح كيف كان يتحدث كثيراً عن استغلال الرأسماليين للعمال. وتلاحظ جيهان الحلو أن أبو عمر قدّم "تحليلاً رائعاً" للصراع السياسي ـ الاجتماعي في لبنان، فالحرب الأهلية كانت قد اندلعت في لبنان، ولذا كان من الضروري معرفة جذورها وطبيعتها.

تأثر أبو عمر بالتجربة الفييتنامية، وذهب قبل عام من اختطافه ورفاقه إلى دورة كوادر في فييتنام، وكتب بعض الشعر بالإنجليزية، ومنه قصيدة بعنوان "عندما بلغت الأربعين"، وفيها يعتبر أن عطاءه الحقيقي ابتدأ مع انضمامه إلى المقاومة الفلسطينية، وأن المهمات شاقة والوقت متأخر والتحديات كبيرة. وكما توضح الحلو فإنه كتب قصائد باللغة الإنجليزية تغنّى فيها بالشعب الفييتنامي ونضاليته العالية، وكتب قصيدة طويلة عن العادات والتقاليد في مدينة رام اللــه.

بعد عودته من الدورة التي استمرت ثلاثة أشهر، بدأ يُعدّ مواد تثقيفية، ولا سيما عن التنظيم وعن المرأة. وتقول المستشرقة الإيطالية، بيانكا ماريا سكارسيا، أنها وأبو عمر توافقا على نظرية هوشي منه، وفحواها أن التاريخ يجب أن يُصنع لا أن يُروى.

وتقول الحلو عن المراحل الأخيرة، قبل فقدان أبو عمر، إنه كان في تلك المرحلة يكتب ما اعتبره حلمه وواجبه؛ تاريخ العرب الحديث. كان يشعر بأهمية معرفة التاريخ من منظور عربي تقدمي وليس كما يكتبه المستشرقون، وكان دائماً يقول: "لا يمكن فهم السياسة واستشراف المستقبل ممّن لا يعرف تاريخه." عكف عدة أسابيع على الكتابة، وكان غريباً أن يقول لي: "لا أريد أن أموت الآن. أريد استكمال كتابة تاريخنا الحديث."

كان أبو عمر يرى أن الحرب الأهلية في لبنان لها أهداف/أسباب مركبة: الصراع الاجتماعي ذو المظهر الطائفي، ورغبة القوى الفاشية في تصفية الثورة الفلسطينية بالتعاون مع العدو الصهيوني، لأنها رأت أن الثورة، بتحالفها مع الحركة الوطنية اللبنانية، تشكل خطراً على هيمنتها.

الموقف من الحل السياسي

يقول أبو نائل القلقيلي: "كان أبو عمر يعتقد أن البرنامج المرحلي لمنظمة التحرير

لا يقود الى ’التحرير على مراحل‘ ”، بحسب ما يوحي النص، وإنما الى ”الاستسلام على مراحل.“

المهمة الأخيرة

قدّمت جيهان الحلو تصوراً مفصلاً ”لقضية اختفاء/اختطاف أبو عمر ورفاقه في ٢٠ تموز/يوليو ١٩٧٦ في أوج الحرب الأهلية اللبنانية“، وقالت إنهم صُنفوا ”مفقودين“، وبعد أعوام جرى التعامل مع الموضوع كأن استشهاد الشباب مسلّم به، لكن من دون إعلان رسمي!

وتتابع أنه في ذروة الصمود البطولي والأسطوري في مخيم تل الزعتر المحاصر في مواجهة التصعيد الجنوني للقوات اللبنانية الفاشية، ومجازرها الرهيبة ضد المدنيين، كُلف المناضل الكبير نعيم، عضو المجلس الثوري وقائد ”نسور العرقوب“، بالذهاب إلى طرابلس مع ثمانية من الكوادر المتقدمة كي يقود منطقة الشمال ويعزز موقعها، مكان غازي عطاالله (أبو هاجم) بعد كثرة الشكاوى من مواقفه وسياساته. وطُلب من أبو عمر الانضمام اليهم كي يتولى لفترة قصيرة تنظيم أمور شعبنا في مخيمَي البارد والبداوي والتنسيق مع الحركة الوطنية اللبنانية. هنا، ولسوء الحظ، تغيرت أولويات أبو عمر الآنية! لم يتحمل ألاّ يشارك بمهمة قد تخفف من معاناة شعبنا! كانت طرابلس ومنطقة الشمال محاصرتَين آنذاك من القوات اللبنانية الفاشية والقوات السورية وقوات المردة، والطريق البرية تسيطر عليها القوات اللبنانية. وإذ أصبحت الطريق البحرية هي خيار الفلسطينيين واللبنانيين من المناطق الأُخرى، توجّه الشباب بحراً في زورق صغير (كان من المفروض أن يذهبوا في زورقين)، وتولت القيادة وغرفة العمليات ترتيب الرحلة والإشراف على تفصيلاتها.

أثر الفراشة

بث راديو أجيال الفلسطيني من رام الله، في ٢٠١٦/١١/١٠، تقريراً التقت فيه مذيعة القناة في الشارع عدداً من الأطفال، وسألتهم: ”مَن هو ياسر عرفات؟“، ولم يعرفوا، في أغلبيتهم، مَن هو فعلاً، مع أنه لم يكن قد مضى على رحيله إلاّ ١١ عاماً فقط، وعلى الرغم من الاحتفاء الكبير به أيضاً.

وصلتُ (الكلام لكاتب هذه المقالة) إلى الجامعة، وكان قد تبقّى دقيقتين على موعد محاضرتي لطلاب السنة الثالثة في العلوم السياسية. دخلت الصف، وفيه ١٩ طالباً، فسألتهم، سؤالا محدداً، طالباً منهم الصراحة وعدم الخجل، والتأكيد أني أتفهم أي نتيجة؛ سألت أولاً: مَن يعرف نايف حواتمة، الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين؟ فعرفه واحد من الطلبة الـ ١٩، ثم سألت: مَن يعرف جورج حبش، الأمين العام السابق للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين؟ فأجاب ١١ أنهم يعرفونه، ثم سألت عن أحد أهم مؤسسي وقادة حركة ”فتح“، الشهيد خليل الوزير (لم أقل أبو جهاد)، فقال ١١ أيضاً فقط أنهم يعرفونه.

بعد أيام قليلة، بثت محطة تلفزيون فلسطينية (”القدس التعليمية“)، التابعة لجامعة القدس المفتوحة، تقريراً حملت المذيعة في أثنائه صورة خليل الوزير (أبو جهاد)، وسألت الناس في الشارع: هل تعرف مَن صاحب الصورة؟ وكانت النتيجة أنه بين ٣٤ شخصاً سألتهم المذيعة، ٩ أشخاص فقط

عرفوا الشهيد أبو جهاد.

هذا الواقع يجب أن يدفع إلى الحيرة والتساؤل، في ظاهرة انقطاع الأجيال، أكثر ممّا يؤدي إلى الألم أو الانزعاج، فربما هناك تفسيرات موضوعية لهذا الأمر؛ لكن الأهم من هذا أن هؤلاء المناضلين لم ينطلقوا في ثوراتهم كي يتذكرهم الناس، وإنما أنكروا أنفسهم في حياتهم، وضحوا بحياتهم الشخصية في كثير من الأحيان في سبيل القضية العامة الوطنية. وبالتالي، على السؤال أن يتحول إلى أثر هؤلاء القادة والمناضلين، حتى لو لم يكونوا هم أنفسهم في صلب المشهد.

ويثير هذا الواقع التساؤل عن الأثر الذي يتركه مناضل مثل حنا ميخائيل لم يقضِ نسبياً، أعواماً طويلة في الثورة، وكان يؤثر العمل بصمت. ■

المصادر

١ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (٣٦٤ – ٤٥٠هـ/ ٩٧٤ – ١٠٥٨م)، كان من رجال الدولة العباسية، اشتهر بدوره في الوساطة بين رجال الدولة لحل الخلافات بينهم، وعمل قاضياً، وكان مؤلفاً غزير الكتابة، واشتهر بكتبه عن قواعد الحكم وقوانينه.

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

اليد ترى والقلب يرسم

سيرة تمام الأكحل وإسماعيل شموط

تمام الأكحل

تحرير غانم بيبي تقديم الياس خوري

٢٨٤ صفحة ١٢ دولاراً